مؤكد أن قضية الحفاظ على «سواد» القارة الأفريقية - بمعنى تحريرها من بقايا الاستعمار وإبقائها خارج دائرة الصراع بين الغرب الأبيض والشرق الأحمر - هى أخطر ما يشغل بال الأفارقة فى هذه الآونة.

• فى سبها بليبيا تشابكت الأيدى. وكانت بداية التسلط الكبرى. والاستشارات فى اتجاه واحد من كاسترو إلى القذافى.

الأفريقيون يفضلونها سوداء

عبد العظيم حماد

●● والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على كل باحث فى القضايا الأفريقية هو: لماذا اتجه الصراع الدولى - وبهذه القوة - إلى أفريقيا، رغم أننا نعيش فى عصر الوفاق كما يقولون؟ ولماذا كان السوفيت هم الذين بدأوا - ونجحوا - فى شق المجرى الأفريقى أمام تدفق تيارات الصراع الدولى؟..

أما لماذا بدأ السوفيت ونجحوا فى أخذ زمام المبادرة على الساحة الأفريقية، فلعل جزءا من الإجابة يكمن فيما اتضح الآن من أن الفشل فى أفريقيا أثناء أزمة الكنغو سنة ١٩٦١ كان واحدا من الأسباب الرئيسية للإطاحة بخروشوف سنة ١٩٦٤..

ولعل فى الإعلان الذى نشرته صحيفة التايمز البريطانية موجها إلى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر قبل شهرين من الآن جزءا آخر من الإجابة. فقد تضمن هذا الإعلان الذى نشرته التايمز على صفحة كاملة تحذيرا للغرب بأن تزايد الوجود السوفيتى فى أفريقيا، وفى نصفها الجنوبى على وجه الخصوص هو آخر حلقة فى سلسلة المحاولات السوفيتية لفصل «العالم الحر» عن مصادر قوته الاقتصادية فيما وراء البحار، وذلك عن طريق السيطرة على طرق الملاحة الغربية الرئيسية. أو على الأقل تهديدها.

لا وفاق فى أفريقيا

●● وأما لماذا اتجه الصراع الدولى إلى أفريقيا رغم الوفاق؟ فالإجابة هنا تتكون من شقين:

الأول:

هو أن الوفاق الدولى الذى شمل أوروبا، وجنوب شرقى آسيا وأريد فرضه على الشرق الأوسط، لم يشمل أفريقيا. وربما كان السبب فى ذلك هو هدوء الساحة الأفريقية. حين بدأ الحديث عن سياسة الوفاق.

أما الشق الثانى من الإجابة:

فيتعلق بأفريقيا ذاتها، وبالدور الذى يمكن أن تلعبه فى مستقبل العالم، فالمعروف أن هناك ثلاث مشكلات رئيسية حادة ستواجه العالم كله فى المستقبل القريب. هذه المشكلات التى تجمعت نذرها بالفعل هى:

- مشكلة الغذاء العالمى
- ومشكلة الانفجار السكانى
- ومشكلة الطاقة.

وأن من يسيطر على أفريقيا سيمسك فى يديه بمفاتيح تلك الأزمات الثلاث لأن أفريقيا أولا منطقة فراغ سكانى، وهى ثانيا تحتوى على إمكانيات زراعية، وموارد غذائية طبيعية هائلة بكل ما توحى به كلمة هائلة من معان. ثم إن أفريقيا أخيرا تستطيع أن تلعب دورا حاسما فى أزمة الطاقة، لأنها من ناحية تخفى فى باطنها كميات كبيرة من البترول والكوبالت واليورانيوم المشع، وهذا العنصر الأخير هو صاحب الدور الرئيسى فى توليد الطاقة النووية، ومن الناحية الأخرى - وكما رأينا فى تحذير الصحيفة البريطانية - فإن من يسيطر على أفريقيا، يستطيع التحكم فى طرق الملاحة التى تنتقل عبرها إمدادات البترول إلى العالم الصناعى، سواء عن طريق البحر الأحمر، أو عن طريق رأس الرجاء الصالح.

والحقيقة أن الأطراف الرئيسية فى اللعبة الدولية قد أدركت مبكرا أهمية القارة الأفريقية، وما كان زحف أساطيل الدولتين الكبيرتين المتصل طوال العامين الأخيرين إلى مياه المحيط الهندى، إلا أحد مظاهر ذلك الإدراك.

وصحيح أن الولايات المتحدة بادرت بإنشاء قاعدة عسكرية فى جزيرة دييجوجارسيا سنة ١٩٧٥ فى المحيط الهندى على مقربة من السواحل الأفريقية، إلا أن السوفيت كانوا قد نجحوا فى الحصول على مواقع قوية داخل الساحة الأفريقية نفسها، وراحوا دون إبطاء يحصلون على المزيد.

وكما هو الحال فى جميع السوابق، كانت أخطاء الغرب، وتأييد السوفيت لحركات التحرر الوطنى الأفريقية، هى حصان طروادة السوفيتى إلى القارة السوداء.

ويمكن القول بأن الدول الغربية قد أهملت أفريقيا تماما، منذ سحق ثورة لومومبا فى الكنغو سنة ١٩٦١. وبينما راح السوفيت يعيدون حساباتهم فى أفريقيا، ألقى الأمريكيون بكل ثقلهم فى جنوب شرقى آسيا. وعن عمد وسبق إصرار تجاهل الغرب كله كفاح الأفارقة ضد سعار ووحشية الاستعمار البرتغالى فى أنجولا وموزمبيق وغينيا بيساو، وضد القهر العنصرى فى روديسيا وناميبيا، وجنوب أفريقيا.

وإذا كان الغرب هو واضع قاعدة التعاون مع الشيطان ضد العدو، فلم يكن أمام الأفارقة إلا السلاح السوفيتى للتصدى لوحشية سالازار ديكتاتور البرتغال الراحل وتلاميذه وحلفائه، وخصوصا أن الأسلحة التى كانت تذبحهم فى الأصل أسلحة غربية، وربما كان ذلك هو أحد أسباب تغلب الاتجاهات اليسارية لدى حركات التحرير الوطنى فى المستعمرات الأفريقية.

وإذن فقد كان سقوط الحكم الديكتاتورى فى لشبونة فى أبريل سنة ١٩٧٤ وما تبعه من التسليم بحق الاستقلال للمستعمرات البرتغالية فى أفريقيا، هو بداية فتح الساحة الأفريقية على مصراعيها أمام الصراع الدولى الذى ملك فيه السوفيت زمام المبادرة، تماما كما كان هذا السقوط هو بداية نهاية عصر الرجل الأبيض فى أفريقيا.

وكان الصراع الدولى - كما نتذكر - قد بدأ أولى جولاته الساخنة فى أنجولا، وهنا أيضا ألقى السوفيت بكل ثقلهم وراء الجبهة الشعبية بزعامة أوجستينو نيتو رئيس أنجولا الحالى، وانتدبوا الكوبيين للقيام بالدور المباشر، مبتدئين بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين القوى الكبرى، أبرز خصائصها العمل من وراء الحلفاء «الصغار».

وكان من المنطق بعد تأييد الغرب المتردد

● وفي أفريقيا أكثر من انتفاضة شعبية كبيرة وكلها ترفض أن تكون في فلك أية دولة كبرى.

لخصوم نيتو. وقبل ذلك حصول كل من موزمبيق وغينيا بيساو على استقلالها أن تكون موسكو هي محط أنظار القادة الجدد في تلك الدول.

ولم يكن أمام الغرب حينئذ إلا الحديث عن التسهيلات البحرية التي حصل عليها الاتحاد السوفيتي في موانئ موزمبيق وفي الموانئ الأنجولية، وعن انتشار الوجود العسكري الكوبي من وراء النفوذ السوفيتي في مناطق أخرى من القارة السوداء، حتى اندلعت الحرب في زائير.

•• وعند هذا الحد لا بد أن نتساءل عن أسباب تردد الغرب والولايات المتحدة بالذات في الدخول في مواجهة حاسمة مع السوفيت في أفريقيا؟

الأسباب التي ذكرت عديدة منها الانشغال في قضية ووترجيت ثم انتخابات الرئاسة، والخوف من حدوث فيتنام أخرى في أفريقيا، وأخيرا يقال إنه كان هناك اتفاق ضمني بين موسكو وواشنطن على أن يترك السوفيت البرتغال للأمريكيين، بينما يترك الأمريكيون أنجولا للسوفيت.

وأيا كان نصيب هذه الأسباب من الصحة فإن الذي نتذكره جيدا أن أفريقيا شغلت الإدارة الأمريكية السابقة في أواخر أيامها، وكان قرار الكونجرس برفض التدخل العسكري في أنجولا هو المسئول عن شل هذه الإدارة في مواجهة السوفيت، كما أن الإدارة الجديدة في واشنطن برئاسة كارتر بدأت تولي الساحة الأفريقية اهتماما خاصا.

القرن الأفريقي

ولا يقتصر الوجود السوفيتي في أفريقيا على نصفها الجنوبي، ولكن ربما كانت البداية الفعلية لهذا النفوذ في منطقة القرن الأفريقي أسبق وبالتحديد كانت هذه البداية في الصومال بعد الانقلاب العسكري اليساري هناك، وباسم المبادئ امتدت الجسور على الفور بين موسكو ومقديشيو، لدرجة أن قضية ما إذا كان السوفيت حصلوا على قاعدة عسكرية في ميناء بربرة الصومالي أم لا، قد ظلت الشاغل الأول لأجهزة الإعلام الغربية عدة شهور قبل عامين من الآن.

إلا أن مجيء الكولونيل الشيوعي مانجستو إلى قمة السلطة في أديس أبابا، قلب الأدوار - على ما يبدو - في القرن الأفريقي، فاحتلت أثيوبيا مكان الصومال في الاستراتيجية السوفيتية، وبدأت العلاقات السوفيتية الصومالية تفتر، لأن الصوماليين كانوا يريدون من موسكو مساندتهم في استرداد ما اغتصبه امبراطور أثيوبيا السابق هيلاسلاسي من أراضيهم.

ويسعى السوفيت الآن وبإلحاح لإنهاء الضعف الذي لحق بمركزهم في القرن الأفريقي من جراء النزاع الصومالي الأثيوبي. أما الأسلوب الذي ابتكروه فهو تكوين جبهة من أصدقائهم في أفريقيا ضد الاستعمار والعنصرية يقوم في داخلها نوع من العلاقات الوحدوية بين الصومال وأثيوبيا.

وكان ذلك هو الهدف الذي سعى إليه كل من فيديل كاسترو رئيس كوبا ومن بعده الرئيس السوفيتي السابق بود جورني خلال جولاتها الأخيرة في القارة الأفريقية. وقد عبر كاسترو عن ذلك بوضوح حين قال إن جولته تستهدف إقناع الدول الأفريقية التي زارها - وهي ليبيا وأثيوبيا والصومال وتنزانيا وموزمبيق وأنجولا - بمبدأ «التحالف الأممي ضد الإمبريالية البيضاء».

ورغم أننا لا نعرف على وجه اليقين ما هي ردود فعل تلك الدول لمبدأ كاسترو فإننا نستطيع أن نؤكد أن أثيوبيا مانجستو هي أكثر الدول تحمسا له. وتدل الملابسات على أن الصومال وتنزانيا قد استقبلتا الاقتراح السوفيتي الكوبي بفتور.

ويقال إن الرئيس التنزاني نيريري قال لكاسترو ولبود جورني:

إنه يشعر أن الأفريقيين يريدون تسوية مشكلاتهم في النطاق الأفريقي. لأن تدخل أي طرف خارجي فيها، سيدفع الأطراف الخارجية الأخرى إلى التدخل، ومن ثم تصبح أفريقيا حلبة لاستعراض عضلات الدول الكبرى وتضيع قضية التحرير والتنمية في تلك الدوامة.

● من يكسب؟

وأيا كان مصير «التحالف الأممي ضد الإمبريالية البيضاء» في أفريقيا فإن القضية العاجلة الآن، والتي ستحدد من يكسب الرهان في أفريقيا هي قضية الحكم العنصري في روديسيا وناميبيا، وحول هذه القضية يدور تنافس محموم بين الشرق والغرب، فالاتحاد السوفيتي يتبنى الحل العسكري، ويبدي استعداده التام لمد ثوار زيمبابوي وناميبيا بكل ما يلزمهم من سلاح وخبرة عبر موزمبيق وتنزانيا وأنجولا، أما الولايات المتحدة ومعها بريطانيا فتتبنيان أسلوب الحل السياسي، الذي يتمثل في الضغط على إيان سميث رئيس الحكومة البيضاء في روديسيا، لإجباره على التخلي عن الحكم لصالح الأغلبية الأفريقية، وعلى حكومة جنوب أفريقيا لإنهاء احتلالها غير المشروع لإقليم ناميبيا.

•• والسؤال الآن هو:

أي من الأسلوبين سيكتب له النجاح؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضي أن نحاول التعرف على رأي الأفارقة أنفسهم. وهنا يبدو لا يمانع الأفريقيون في التعاون مع أي من الطرفين، إذا كان ذلك سيؤدي إلى حصولهم على حقوقهم، وعلى كل حال هناك ما يؤكد أن حركات التحرير الأفريقية في كل من زيمبابوي (روديسيا) وناميبيا، ودول المواجهة الأفريقية، تسعى في نفس الوقت للحصول على أقصى دعم عسكري ممكن من السوفيت، وعلى أقصى دعم سياسي ممكن من الغرب.

ورغم أن الضغط الغربي على النظامين العنصريين في روديسيا وجنوب أفريقيا لا يزال غير فعال، فإن هناك الخوف من تحول نصف أفريقيا الجنوبي بأكمله إلى منطقة نفوذ سوفيتية إذا تغلب في النهاية أسلوب الحل العسكري، وهذا الخوف وحده كفيل بحسم تردد الغرب في الضغط على كل من سالزبوري وبريتوريا.

وفي هذا الموقف من جانب الأفارقة، ما يدفعنا إلى أن نقول باطمئنان إن الشعوب الأفريقية - رغم أن عوامل خارجة عن إرادتها جعلت من أفريقيا حلبة للصراع الدولي - ترى أن صالحها يقتضي البقاء خارج نطاق الاستقطاب ومناطق النفوذ وخصوصا أن هذه الشعوب تدرك جيدا أن الدول الكبرى لا تقتطف الثمر لتضعها في سلة غيرها، وأن الأفارقة أمامهم طريق طويل.. طويل للخروج من دائرة الفقر والتخلف.

•• فهل ينجح مؤتمر القمة الأفريقي القادم في جابون في تحقيق هذه الأمنية؟

هذا ما نوده، وهذا ما ستجيب عليه الأيام.

●

رسالة عمان

هل نحن أمة خائفة؟

● نحن جيل خائف ممنوع من العمل. لأنه يعيش وسط دوائر من الرعب والتسلط الاجتماعي. وأول هذه الدوائر تبدأ نقطة في الأسرة يكون مركزها الطفولة. فالأب يخاف على ولده فيخيفه! وخوف الأم يبعث الخوف في الابن.. ثم تتسع دائرة الخوف.. فالطالب (يجب) أن يخاف من المعلم.. والمعلم من المدير.. والمدير من المفتش.. الخ...

وأما في الحياة فيبدأ الخوف بالتظاهر اشكالا والوانا من النفاق الاجتماعي! الخوف من الجوع.. والخوف من الفقر.. والخوف من الإهانة.. كل انسان يخيف آخر.. ويخاف من آخر! فإذا بالمجتمع عقدة خوف!

واما اللحظات التي يعتبرها الناس شجاعة فأغلب الاحيان تكون ردود فعل لعقدة الخوف، فالخائف أسرع في هربه من غيره.. وأحكم في ضربته من سواه!

ولئن كانت الخمر ام الكبائر.. فإن الخوف هو ابو الكبائر.. فالخوف يمنع العمل.. وهذا هو الموت بعينه..

لماذا نخاف؟! لأننا نكره الصدق.. فنخاف الحقيقة!

وإذا جاز لي أن أصف العلاج.. فلن تكون وصفتي (حبوب الشجاعة)! وإنما (الحمية) عن (حبوب الخوف).. والعودة إلى جذورنا الحضارية، ان وجدت، في تعاملنا مع الحياة!

وإذا كان لا بد من خوف! فليكن خوفنا من الخوف!

... لا.. فلسنا أمة خائفة.. وإن كنا جيلا خائفا!!! ورغم ذلك فقد تخللت حياته فترات صحو عبر فيها التاريخ!!

● وقبل أن تتهمني أيها القارىء العزيز بالشجاعة فأنا لا أبرىء نفسي من الخوف!.

أ. س